معهد الدين القيم

بأشراف الشيخ أبي الحسن علي الرملي

تفريغ دروس الأصول الثلاثة

شرح الشيخ علي بداني

(أبي عبد الله)

الدرس رقم (11)

التاريخ : الخميس 25 - 5 - 1440 هـ

تفريغ الدرس الحادي عشر من دروس شرح الأصول الثلاث

الحمدُ لله وحده، والصَّلاةُ والسَّلامُ على من لا نبيَّ بعده، وأشهدُ أَنْ لا إله إِلَّا الله وحدهُ لا شريكَ له، أمّا بعد:

فهذا المجلسُ قبلَ الأخيرِ من مجالسِ شرحِ الأصولِ الثلاثة؛ لشيخِ الإسلام مُحمَّد بن عبدِ الوَهّاب - رحمهُ الله - وجزاهُ الله خيرَ ما جزى عالمًا عن أمته.

ولا زِلنا معكم في ذكرِ بعضٍ من سيرةِ النَّبي المُختار، سيّد الأولينَ والآخرين، خَاتَم النبيين والمُرسلين، خليل الرحمن، مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشميّ القرشيّ، أفضلُ النَّاس وأطهرهُم نسبًا، نشهدُ الله أنَّه قَد بَلَّغ الرِّسالة، وأدَّى الأمانة ونصحَ الأُمّة، وجاهدَ في الله حقَّ جهادهِ حتى أتاهُ اليقين، صلواتُ الله وسلامهُ عليه.

وكُنَّا قد وصلنا إلى حادثةِ المعراج.

قال شيخ الإسلام - رحمهُ الله -:

[وبعدَ العشر عُرِجَ به إلى السماء وفُرِضَتْ عليهِ الصّلوٰات الخَمْس].

مَكَثَ صلى الله عليه وسلم عشرَ سنين يدعو إلى لا إِلَه إِلَّا الله ويُحَذِّر النَّاس من الشركِ باللهِ العظيم؛ لا يدعو إلّا إلى ذلك سرًا وجهراً؛ ليلًا ونهارًا؛ وما ذلكَ إلّا لِأَنّ أعظمَ ما أمر الله به التَّوحيد، وأعظم ما نهى عنه الشرك، وقبلَ الهجرةِ بثلاثِ سنين حدثت هذه المُعجزة الإلهية، التَّي خصَّ الله سبحانه وتعالى بها نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم.

والإسراءُ ثابتٌ بنصِّ القرآن، فقد ذُكر في بداية سورة الإسراء عند قول الله تعالى: { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ }.

والمعراجُ ذُكِرَ في بدايةِ سُورة النَّجم، قالَ الله تعالى: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ}.

وهو ثابتٌ في السنَّةِ كذلك؛ فقد أخرجَ هذه القصة البخاري ومسلم في صَحيْحِيهما في مواضعَ كثيرة، وأخرجها غيرهُم كذلك.

أمَّا الإسراء **فهو السيرُ ليلًا، وكان من مكَّةَ إلى بيت المقدس**، قال الله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}.

وأمَّا المعراجُ **فهو الصُّعود، وكان من بيت المقدس إلى سدرة المنتهى**، ومن معانيهِ كذلك: **آلة الصعود، وهي السلَّم أو المِرقاة**، فيكونُ معنى المعراج: **الليلة التي صُعِدَ بالنبي صلى الله عليه وسلم فيها على المعراج؛ وأُسْرِيَ به صلى الله عليه وسلم يقظةً لا مناما، وبروحهِ وجسدهِ صلى الله عليه وسلم.**

وهي من المعجزات التي خُصَّ بها نبينا صلى الله عليه وسلم كما ذكرنا.

فبينما هو عندَ الكعبة بين النائم واليقظان صلَّى الله عليه وسلم ، أتته ملائكة فشقت ما بين ثغره نحرهِ إلى أسفل بطنه، ثُمَّ اُسْتخِرجَ قلبهُ ومُلِىءَ إيمانًا وحكمة، تهيئةً لهُ لِمَا سيقوم به صلى الله عليه وسلم.

ثم أُتِيَ بدابة بيضاء يُقال لها البراق، فوق الحمار ودون البغل، هذا البراق يضع خطوة عند منتهى طرفهِ، فَركبهُ صلى الله عليه وسلم بصحبة جبريل عليه السلام، حتى وصلا إلى بيت المقدس، وكانَ النَّاس في ذلك الزمن يقطعون هذه المسافة في مدة شهر، لكنَّ النبي صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام على هذا البراق قَطعوها في نحو ساعة من الزمن، فنزل هناك وربطَ هذه الدّابة في حلقة باب بيت المقدس، وصلَّى النبي محمد صلى الله عليه وسلم بجميع الأنبياء والمرسلين إماماً، وكيفيَّة ذلك أنَّ هذا من الأمور الغيبية التي لا ينبغي السؤال عنها بكيف، ونحنُ والحمدُ لله أمَّة

الإسلام امتدحنا الله في أوائل سورة البقرة بالإيمان بالغيبِ، فصلَّى النبي صلى الله عليه وسلم بجميع الأنبياء والمرسلين حقيقةً ، وفي هذا فضلٌ عظيمٌ للنبي صلى الله عليه وسلم وشرف لأمته.

ثُمَّ عَرَجَ (أي: **صَعَدَ**) به جبريل عليه السلام إلى السماء الدنيا؛ فوجد فيها آدم عليه السلام، ثُمَّ صَعد به إلى السماء الثانية فوجد فيها يحيى وعيسى عليهما السَّلام وهما ابنا خالة، كلٌ منهما ابنُ خالة الآخر، ثم صَعَد به إلى السماء الثالثة فوجد فيها يوسف عليه السلام، ثُمَّ صَعَد به إلى السماء الرابعة فوجد فيها إدريس عليه السلام، ثُمَّ صعد به إلى السماء الخامسة فوجد فيها هارون ابن عمران، أخو موسى عليهما السلام، ثُمَّ صَعد به إلى السَّماء السادسة فوجد فيها موسى عليه السلام، ثُمَّ صَعد به إلى السماء السابعة فوجدَ فيها إبراهيم عليه السلام مُسْنِدًا ظهره إلى البيت المعمور، وقد تَقَدَّم معنا ذكر البيت المعمور، وأنَّه يدخلهُ كلّ يوم سبعونَ ألف ملك يتعبدونَ الله فيه ويصلون ثُمَّ لا يعودونَ إليه، ويأت كلَّ يومٍ غيرهم من الملائكة الذين لا يُحصي عددهم إلّا الله سبحانه وتعالى.

وكلُ سماء محروسة لها حُرَاس من الملائكة، وكلُّ سماءٍ يَستفتحُ جبريل ويقال له مَنْ؟ فيقولُ: **جبريل**، فيقالُ: **وَمَنْ معك؟** فيقولُ: **مُحَمَّد**، فيُقال: **وهل أُرْسِلَ اليهِ؟** فيقولُ: **نعم**، فيفتَح، وكلُّ نبيّ من الأنبياء يُسلم عليه ويقرّ بنبوته صلى الله عليه وسلم.

آدم و إبراهيم قالا له: **مرحبًا بالنبي الصالح والإبن الصالح.**

وأمّا بقيَّةُ الأنبياء قالوا: **مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح.**

ثُمَّ تجاوز إلى سِدرة المنتهى بعد السبع الطباق، فَغَشِيها من البهاءِ والحسن ما غَشِيها؛ حتَّى لا يستطيع أحدٌ وصفها، قال الله تعالى: { إِذْ يَغْشَىٰ السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ } .

حتَّى وصلَ إلى مكانٍ يسمعُ فيه صريف الأقلام التي تكتبُ القدر، فكلَّمهُ ربّه بدون واسطة، لكن لم يرهُ على الصَّحيح؛ وإنَّما كلمه من وراء حجاب، لحديث أبي ذر عند مسلم قال: سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل رأيتَ ربَّك؟ قال صلى الله عليه وسلم : (نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ !)

ثُمَّ فَرض الله عليه الصَّلاة خمسينَ صلاة كلّ يوم وليلة؛ فرضيَ صلى الله عليه وسلم وَسَلَّم، ثُمَّ نَزَل، فلمَّا مَرَّ بموسى عليه الصَّلاة والسلام في السماء السادسة قال لهُ: **ما فرضَ ربُّك على أُمتك؟** قال: (خمسين صلاة في كلّ يوم)، فقال موسى: **إنّ أمتك لا تطيق ذلك وقد جربت الناس قبلك وعالجتُ بني اسرائيل أشد المعالجة؛ فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك**، فَما زالَ يراجعُ حتى خُفِّفَت إلى خمس، وقال له موسى عليه السلام: **اسأله التخفيف عن خمس**، فقال صلى الله عليه وسلم: (لا؛ إنِّي سألتُ ربي حتَّى استحييت) .

فنادى مناد من السماء: **أمضيتُ فريضتي وخففت عن عبادي، هُنَّ خمسٌ وهُنَّ خمسون، لا يُبَدَّل القول لدي؛ خمسٌ في العدد وخمسونَ في الأجر، فضلًا من الله ورحمة**، ومِصْداق ذلك قول الله تعالى: { مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِها } .

وهذه يدلّك كذلك على عِظَمِ شأن الصَّلاة فقد فُرضت في السماء، ثُمَّ نَزَل من السَّماء إلى بيتِ المقدس، ثُمَّ أنّه رَجع إلى مكة في ليلته؛ فلمّا أصبح وأخبر الناس بذلك ذهب المشركون إلى أبي بكرٍ الصديق - رضي الله عنه - وظنُّوا أنّه يُكذبه، فقالوا: أنظر صاحبك ما قال؟ قال: وماذا قال؟ قالوا: يَزعُم أنّه ذُهِبَ به إلى بيت المقدس وعُرِج به إلى السماء وأنّه جاء وهذا في ليلة واحدة، فقالَ أبو بكر -رضيَ الله عنه -: إن كان قال فقد صدق، قالوا: كيفَ ذلك؟ قال: أنا أُصّدقهُ فيما هو أعظمُ من ذلك؛ أصدُقهُ في خبرِ السَّماء؛ فكيفَ لا أُصَدّقهُ في الإسراء إلى بيت المقدس؟

قالَ الشيخ -رحمه الله - بعد ذلك:

[وصلَّى في مكة ثلاث سنين].

صلَّى النبي صلى الله عليه وسلم في مكةَ ثلاث سنين قبلَ أن يُهاجر إلى المدينة، وكان صلى الله عليه وسلم يُصلي الرباعيةَ ركعتين، ولمّا هاجر إلى المدينة أُقّرَت صلاةُ السفر وَزِيدَ فِي الحَضَر، فقد أَخرجَ البخاري ومسلم من حديث عائشةَ - رضي الله عنها - قالت: **فرضت الصلاة ركعتين ثم هاجر النبي صلى الله عليه وسلم ففرضت أربعا، وتركت صلاة السفر على الأولى.**

ثم قالَ - رحمه الله - :

[وبعدها أُمِرَ بالهجرةِ إلى المدينة].

انتقلَ الشيخ رحمهُ الله هنا إلى الحديث عن هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، فإنّه لمَّا أشتدَّ أذى قريش وزاد شرهم بالصدِّ عن سبيل الله ومضايقهِ المسلمين وتعذيبِ من ليس له جماعةٌ تحميهِ، كانَ النّبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل ويعرض دعوته في موسم الحج، يذهب إليهم في منى ويدعوهم إلى الله؛ وصادف أن لقي أناسًا من الأنصار، أي: من أهلِ المدينة، فَعرضَ عليهم الإسلام فأسلموا، وقَبلوا دعوته صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ قدموا إلى الحج من العام الذي بعده، مع بعض قومهم وكانوا اثنا عشر رجلا من الأوس والخزرج فأسلموا؛ وبايعوا النبي صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة الأولى، وبعثَ معهم مُصعب بن عمير يُقْرؤهم القرآن وَيعلّمهم الإسلام.

وفي العام الذي بعدهُ في موسم الحج في ذي الحجة قبل الهجرة بثلاثة أشهر جاء جماعة من الأنصار وكانوا ثلاثاً وسبعون رجلاً وامرأتان، وبايعوا النبي صلى الله عليه وسلم على الإسلام، وعلى أن ينصروهُ إذا هو هاجرَ إليهم، وأن يحموهُ مِمَّا يحمون منه أنفسهم وأولادهم، وهذه هي بيعة العقبة الثانية.

وبعدَ هذه البيعة أَمَر النبي صلى الله عليه وسلم من كان في مكة من المسلمين أن يهاجر إلى المدينة، وَبقي الرسول صلى الله عليه وسلم وبعض أصحابه؛ فلمَّا علمت قريش بالبيعة التي حصلت بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين الأنصار؛ وبهجرة الصحابة إلى المدينة، خافوا أن يلحق النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه في المدينة وتكونُ لهم القوة، وتقوم لهم دولة، فتآمروا على قتلهِ صلى الله عليه وسلم، فاجتمع كبراء قريش في دار النَّدوة، وتشاوروا في أمره، فأشار إليهم عدوُّ الله أبو جهل أن يأخدوا من كلّ قبيلةٍ شابًا قوياً ويُعطى سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إلى محمد فيضربوه ضربة رجلٍ واحد، يقتلوه ويتفرق دمه في القبائل، فلا يستطيعُ بنو عبد مناف (وهم عشيرة الرسول صلى الله عليه وسلم) أن يحاربوا قومهم جميعًا فَيَرضون بالدية؛ لكن قال الله تعالى: { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ واللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}.

في هذه اللّيلة التَّي أرادوا تنفيذ مكرهم وقتلَ النبي صلى الله عليه وسلم حاصروا البيت، ووقفوا عند الباب معهم أسلحتهُم، فأخبر الله نبيّه صلى الله عليه وسلم وأذنُ له بالهجرة، وأمر النبي صلى

الله عليه وسلم عليًا رضي الله عنه أن ينامَ على فراشهِ، فإذا رآهُ المشركون ظنُّوه الرسول صلى الله عليه وسلم، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم من بينهم وهم لا يشعرون؛ فأعمى الله أبصارهم، وذرَّ الرسولُ صلى الله عليه وسلم التراب على رؤوسهم، وذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه وخرجا وذهبا إلى غار ثورٍ واختفيا فيه ثلاثة أيام، وقريشٌ تطلبه بأي وسيلة، حيًا أو ميتا، وجعلوا لمن يأتي بهما أو بأحدهما ديته مئة من الإبل، وكانوا يقفون على الغار ولو أنَّ أحدهم نظر إلى أسفل قدميه لأبصرهم؛ لكنَّ الله كان معهم، بحفظهِ ونصرتهِ، وقد أَشرنا إلى هذا عند ذكرنا لأقسام المعيَّة في المرتبة الثالثة من مراتب الدين، ألا وهي: مرتبة الإحسان، قالَ الله تعالى: { إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِإِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }، قالَ أبو بكرٍ -رضي الله عنه -: **يا رسولَ الله لو أنَّ أحدهم نَظَرَ إلى قدميةِ أبصرنا**، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يا أبا بكر ما ظَنُّك باثنين الله ثالثهما)، فلمّا يَئِسَتْ قُريش من الحصول عليهما، خرجا من الغار مُتجهين إلى المدينة، ولمَّا سَمِعَ أهل المدينة من المهاجرين والأنصار بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم كانوا يخرجون صباح كلّ يوم إلى الحَرَّة ينتظرون قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه حتى تطردهم الشمس؛ ولمّا كان ذلك اليومُ العظيم استقبل المسلمونَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسلاح يبدون استعدادهم للجهاد والدِّفاع عنه صلى الله عليه وسلم، فنزلَ صلى الله عليه وسلم في بني عمرو بن عوف في قباء، وأقام فيهم بضعَ ليال وأسس المسجد ثم ارتحلَ إلى المدينة والناس معه، وآخرون يَتَّلقونه في الطرقات، قال أبو بكر - رضي الله عنه -: **خرج الناس حين قَدمنا المدينة في الطرق وعلى البيوت، والخدم والغلمان يقولون: اللهُ أكبر جاءَ رسولُ الله، اللهُ أكبر جاءَ مُحَمَّد.**

ثم قالَ - رحمهُ الله -:

[والهجرة: الانتقال من بلدِ الشرك إلى بلد الإسلام] .

الهجرة في *اللغة*: من الهجر وهو الترك.

وأمّا في *الإصطلاح* فهي كما عرفها المؤلف -رحمه الله -: **الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.**

قال:

[والهجرة فريضةٌ على هذه الأمة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام وهي باقية إلى أن تقوم الساعة].

الهجرةُ فريضة أي - واجبة - على أمّة محمّدٍ صلى الله عليه وسلم، من بلد الشركِ إلى بلد الإسلام.

وبلد الشرك الذي يجبُ على العبد أن يُهاجر منه وأن يتركه **هو الذي تقام فيه شعائر الكفر ولا تقام فيه شعائر الإسلام من أذانٍ وصلاة جمعةٍ وجماعة وأعيادٍ على وجه عام شامل**، وهذا قيد مُهم؛ قيدنا ذلك : على وجه عام شامل، ليخرج ما تقام فيه هذه الشعائر على وجه محصور، لأنَّ بعض بلاد الكفار فيها أقليات مُسلمة، هذه الأقليات رُبَّما تقيم بعض الشعائر لكن على وجه محصور ليس عامًا شاملا؛ فإنّ مثل هذه البلاد لا تكون بلاد إسلام بما تقيمهُ هذه الأقليات المسلمة من شعائر الإسلام.

وموطنُ الإنسان التي يستوطنها هي البلاد التي يتمَّكنُ من إظهار دينه فيها؛ فكلُّ من لم يكن قادرًا على إظهار دينه في وطن منَ الأوطان وكان قادرا على الهجرة إلى وطن يستطيع إظهار دينه فيه فإنّ الهجرة في حقِّهِ واجبة.

ومن استطاع إظهار دينه في بلد الشرك؛ أُسْتُحِبُّ له أن يهاجر، وهذا ما ذهب إليه الإمام الشافعي -رحمه الله- وغيره من أهل العلم.

وعلى هذا يمكن أن نقول بأنّ :

الهجرة تنقسم إلى قسمين :-

- **(هجرة عامَّة):** هذه التي ذُكرت وذكرها المؤلف بقوله: [الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام]؛ أي: أيُّ بلدٍ، فهو بلد غير مخصوص، أيّ بلد من بلدان الشرك **وهذه تكون إمَّا:**

- **واجبة** لِمَن لم يكن قادرا على إظهار دينه فيها؛ وكان قادرًا على الهجرة، هذه تكون واجبة في حقه.

-وقد تكون **مُستحبةً** : لمن كان قادرا على إظهار دينه في بلد الشرك.

هذه الهجرة بمفهومها العام هي التي لا تَنقطع حتى تنقطع التوبة، أي: هي باقية إلى قيام الساعة.

وأمّا القسم الثاني من أقسام الهجرة فهي :

- **(الهجرة الخاصَّة)** وهي الهجرة من مكة إلى المدينة؛ وهذه كانت واجبةً لمّا كانت مكة دارَ شركٍ زمن النبي صلى الله عليه وسلم؛ فتركها النبي صلى الله عليه وسلم وأمر أصحابه بالهجرة منها، هذه الهجرة الخاصة هي التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم: (لا هجرةَ بعد الفتح ولكن جهادٌ ونيَّة وإذا اسُتْنفرتم فانفروا) هذا الحديث متفق عليه، أي: لا هجرةَ بعد فتح مكَّة لأنّها صارت دار إسلام.

ثم قال - رحمه الله تعالى -:

[والدليل قوله تعالى :{ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا} .]

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَاهُمُ الْمَلائِكة) : أي ملكُ الموت وأعوانه .

(ظَالِمِي أَنْفُسِهِم) : حالَ كونهم ظالمينَ لأنفسهم.

(قَالُوا فِيْمَ كُنْتُم) : أي: قال لهم الملائكةُ على سبيلِ التُّوبيخ والإنكار في أي الفريقين كنتم؟

(قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرضِ) : الاستضعافُ هنا هو عدمُ القدرة على إظهار الدين.

(قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) وهذا دليلٌ على أَنَّ مَن لم يكن قادرًا على إظهارِ دينه وكان مستضعفًا في بلدِ الكفر والشرك وكان قادرًا على الهجرة؛ وجبت عليه الهجرة إذا قَدِر عليها، فإنَّ الملائكةَ تُوَبِّخهم حالَ قبضَ أرواحهم وتقولُ لهم: أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا؟ ثُمَّ تَوَّعَدهم الله عز وجل بقولهِ: {فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمَ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } تَوَّعدهُم اللهُ بالنَارِ كما تَوَّعَد أهل الكبائر.

ثُمَّ استثنى الله طائفة بقوله: { إِلَا المُسْتَضْعَفينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالْنِّسَاءِ وَالْوِلْدَان } وهؤلاءِ الذين عَذرهُم اللهُ عزَّ وجل من الهجرة، وهم المُستَضْعَفُون، والله سبحانه وتعالى عَذَرهُم لأنَّهم لا يستطيعونَ حِيلة، فليسَ لهم حيلة والتي هي حسن تَصّرف .

(ولا يهتدونُ سبيلا) : أي لا يعرفون الطريق إلى بلد الإسلام .

(فُأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُم وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا) : أي أولئكَ الذين يَعفُو الله عنهم لا محالة.

ووجهِ الدلالةِ من هذه الآية على وجوبِ الهجرة ظاهر وذلك بالتَّوعد بالنَّار لمن تَخَلَّفَ عن الهجرة، فإنّه تركَ واجبًا عظيمًا، وهو مُرتكبٌ لكبيرةٍ من كبائرِ الذنوب.

قالَ - رحمهُ الله -:

[وقولهُ تعالى :{ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ}].

(يا عِبادي الَّذين آمنُوا) : فإذا كنتم مؤمنين حقًا، فإنّ مُقتضى الإيمانِ هو الهِجرة حتى يَتحققَّ الدين.

(إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدونِ) : أي : وحدوني في أرضي الواسعة.

في هذهِ الآية أمرٌ بالهجرةِ في أرض الله الواسعة، وهذا دليلٌ على وجوبها من بلاد الشركِ إلى بلاد الأسلام، فإذا لم تكن قادرًا على إظهارِ دينكَ في أرض فانتقل منها واتركها إلى غيرها.

قال -رحمه الله -:

[قَالَ البغويُّ رحمهُ الله تعالى: سبب نزول هذه الآية في المسلمين الذين بمكةَ لم يهاجروا ناداهم الله باسم الإيمان] .

[البغويُّ] : هو أبو محمد الحسين بن مسعود الفرّاء البغوي، صاحب التفسير وشرح السّنة وغيرهما، المُتوفى سنة خمسمئة وستُّ عشرة.

حكى هذا القول عن جماعة من التابعين، فأفادَ أنَّ تارك الهجرة بعد أن وجبت عليه ليس بكافر لكن هو عاصٍ بتركها؛ فهو مؤمنٌ ناقصُ الإيمان، عاصٍ من عُصاة المُوَحِّدين المُؤمنين الذين توَّعدهم الله بالنار، كما تَوُّعد أهل الكبائر.

ثُمَّ قالَ - رحمهُ الله -:

[والدليلُ على الهجرةِ من السُّنة قوله صلى الله عليه وسلم: لَا تَنقطعُ الهجرة حتَّى تنقطعَ التَّوبة، ولا تنقطعُ التَّوبةُ حتَّى تَطلع الشمسِ مِن مَغربها].

هذا الحديث أخرجهُ أبو داود وأحمد من حديث معاويةَ بن أبي سفيان رضي الله عنه وقد صَحّحهُ الشيخ الألباني رحمهُ الله في الإرواء.

(لا تنقطعُ الهجرةُ) : أي: لا يسقطُ وجوبِ الهجرة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام إلّا بانقطاع التوبة؛ ووقت انقطاع التوبة هو طلوعِ الشَّمس من مغربها وهذا يوم القيامة، قال الله تعالى: { يَومَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا } ، وهذا حَدٌ عامٌ للتوبة؛ وللتوبة حَدٌّ وزمنٌ خاص وهو الغَرغرة، فإذا حضرَ العبدَ الموتُ فإنَّه لا تنفعهُ توبة، فالهجرةُ لا تنقطعُ كما قَدَّمنا، فهي باقيةٌ في هذه الأمة إلى قيامِ السَّاعة.

ثم قال - رحمهُ الله -:

[فَلَمَّا اسْتقرَّ بالمدينة أُمر ببقية شرائع الإسلام مثل: الزَّكاة والصوم والحج والأذان والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرِ ذلك من شرائعِ الإسلام] .

الصلاة فُرِضَت في مكَّة ليلة المعراج وقد مَرَّ معنا ذلك، وكانَ ذلك قبلَ الهجرة بثلاث سنين.

أمّا **الزَّكاة** : قال أهل العلم أنَّ أصلُ الزكاة فُرِضَتْ في مكة بدليل ذِكْر وُجوبها في آياتٍ مكيَّةٍ كثيرة؛ لكن تفصيلَ أحكامها هو الذي فُرِضَ في المدينةِ في العام الثاني، وتفصيلها أي: أَنْصِبتها وَمصارفُها.

أمّا **الصِّيام** فإنّه فُرِض في السنَّة الثانية للهجرة.

وأمّا **الحَجُّ** فقد فُرِضَ في السنّة التاسعة على الصحيح.

وغير ذلك من الشرائع كلّها فرضت في المدينة؛ كالأذانِ وصلاة الجمعة، والجماعةِ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد وغير ذلك، وهذا يُفيدنا فائدة عظيمة وهي بيان عظيم قدر التَّوحيد، فقد بدأ بهِ النَّبي صلى الله عليه وسلم دعوته، ودعا إليه وحدهُ عشرَ سنين، واستمَّر يدعو إليه بقية دعوتهِ وحياتهِ، يدعو قومَهُ إلى: لَا إله إِلَّا الله، وكذلك لما بَعثَ مُعاذًا إلى اليمنِ قال له: (إِنَّكَ

تأتي قوماً من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أَن لَا إِلَه إِلّا الله) ، وهذا منهج جميع الرسل والأنبياء؛ فأولُّ ما يبدؤونَ بهِ التَّوحيد وقد تَقَدَّم مثلُ هذا الكلام كثيرًا.

قال - رحمهُ الله -:

[أَخذَ على هذا عشر سنين وبعدها تُوفي صلاة الله وسلامهُ عليه ودينه باق] .

بَقيَ صلى الله عليه وسلم عشر سنين في المدينة، والشريعةُ تتنزلُ بالتدريج حتى تكاملت والحمدُ لله، وأنزل الله قوله تعالى: { اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}.

ثُمَ بَدَأهُ المرض صلَّى الله عليه وسلم في آخرِ صفرٍ وأولَّ ربيعٍ الأول، وأَمَر أبا بكر الصديق رضي الله عنه أن يُصلِّيَ بالناس؛ فَلَّما كانَ اليوم الثاني عشر أو الثالث عشر من ربيعٍ الأول من العام الحادي عشر تُوفِّي صلى الله عليه وسلم.

وكانتَ موتهُ صلَّى الله عليه وسلم أعظمَ المصائبِ على الإطلاق، وأَثَّرَ ذٰلكَ في الصحابة رضي الله عنهم تأثيرًا بالغًا، حتَّى إنَّ بعض الصحابة لم يُصَدِّق بموتهُ صلَّى الله عليه وسلم، ومنهم الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخليفةُ الراشد، حتى جاء الصِّديق أبا بكر رضي الله عنه وكان رجلاً مُسَدّدًا مُوفقًا ثابتًا في مواطن الأزمات والكروب، فدخلَ على النبي صلى الله عليه وسلم وقبَّله وقال قَولتهُ التَّي حَفظتها وثائق التاريخ: **(طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا)** وخرجَ إلى النَّاس وهم مُضطربونَ وقال: (أَيُّهَا الناس مَن كانَ يَعبدُ مُحمَّدًا فإنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَات، وَمن كانَ يَعبدُ اللهَ فإنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَموت)، وهذا أخرجه البخاري، فحينها أَيْقَنَ الصَّحابة بوفاة رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، ودينهُ صلى الله عليه وسلم باقٍ إلى يوم القيامة.

قال - رحمه الله -:

[وهذا دينهُ لا خيرَ إلا دَلَّ الأُمَّة عليهِ ولا شَرَّ إلّا حَذَّرها منه].

قال أبو ذر - رضي الله عنه -: (لقد تُوفيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وما مِنْ طائرٍ يُقَلِّبُ جناحيهِ في الهواءِ إِلَّا ذَكَرلنا منهِ علمًا) أخرجه أحمد.

وفي صحيح مسلمٍ قيل لسلمان الفارسي رضي الله عنه: **عَلَّمكم نبيكم كلّ شيء حتى الخَراءة** ! قال سلمان: (أجل لقد نهانا أَنْ نستقبلَ القبلة بغائطٍ أو بول، أو نستنجيَ باليمين، أو أن نستنجيُ بأقلّ من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي برجيعٍ أو عظمٍ) وهذان الحديثان يدلان على أنّ النبي صلى الله عليه وسلم بَيَّنَ لنا كلّ شيء.

ثم قالَ - رحمهُ الله -:

[والخير الذي دلهَا عليه التوحيد وجميع ما يحبه الله ويرضاه، والشر الذي حذرها منه الشرك وجميع ما يكرههِ الله وَيأْباه].

أعظمُ الخير على الإطلاق التُّوحيد، وأعظمُ الشَّرِ الذي نهى عنه الشرك على الإطلاق وقد تَقَدَّم بيان ذلك.

ويدلّ على هذا قوله صلى الله عليه وسلم: (أنّهُ لَمْ يَكُنْ نبيٌ قبلي إلّا كان حقًا أن يدلّ أمتهُ على خيرِ مُا يعلمهُ لَهم وَينذرهم شَرّ ما يعلمهُ لهم) رواه مسلم، وكذلك قول الله تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ }.

قالَ - رحمهُ الله -:

بَعثهُ اللهُ إلى النَّاسِ كافَّة وافترض طاعته على الثقلين الجنّ والأنس، والدليل قوله تعالى :{ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا }] .

طاعتهُ صلَّى الله عليه وسلم واجبة، وهي طاعةٌ لله تعالى، قال الله تعالى: {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ}، وقالَ تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُم}، وقالَ تعالى: {وَمَا آتَاكُمْ الرَّسولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهِ فَانْتَهُوا}.

وفي الآيةِ التي اسْتَدَّلَ بها الشيخُ - رحمهُ الله - دليلٌ على عمومِ شريعةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، الذي أشارَ إليه - رحمه الله - بقولهِ بعثهُ الله إلى الناس كَافَّة، قالَ اللهُ تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا}، وقالَ تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلّا كَافَّةً لِلنّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا}، وقالَ تعالى: { تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانُ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}.

وَمِنَ السنة قوله صلى الله عليه وسلم: (أُعْطيتُ خمسًا لَم يُعْطِهن أحدٌ من الأنبياء قبلي، ومن هذه الخمس وكانَ النَّبي يُبعث إلى قومهِ خاصَّة وبُعثتُ إلى النَّاس كافَّة)، وهذا أخرجه البخاري ومسلم من حديث جابر رضي الله عنه، فالواجبُ على الجميع من يهودٍ ونصارى ومجوسٍ وغيرهم اتّباع دين محمد صلى الله عليه وسلم، قال صلى الله عليه وسلم: (والَّذي نفسُ محمدٍ بيدهِ لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمَّة يهودي ولا نصراني ثُمَّ يموتُ ولم يؤمنُ بالذي أُرْسلتُ به إلّا كانَ من أصحابِ النّار) رواه مسلم.

قال الله تعالى :{ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُم تُرْحَمُونَ }، فمنْ أَطاعهُ دخلَ الجنَّة، ومنْ عصاهُ دخلَ النَّار.

قال الله تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينُ} .

ثُمَّ قالَ - رحمهُ الله-:

[وَأكْمَلَ الله به الدِّين والدليلُ قوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا }].

فدينُ الله كامل؛ والكاملُ لا يقبلَ أنْ نزيدَ فيهِ، وَكلُّ مَن زاد في الدّين كانت زيادته مُحدثة بِدعة، قال صلى الله عليه وسلم: (مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمرِنا هٰذا مَا ليسَ منهِ فَهو رَدّ) متفق عليه، وقال صلى الله عليه وسلم: (وَكلُّ مُحدثة بِدعة وَكلُّ بدعةٍ ضَلالة وَكلُّ ضَلالة في النَّار)، قال ابن مسعود رضي الله عنه: (اتَبعوا ولا تَبْتَدعوا فَقد كُفِيتُم)، فهذا الدِّين صالحٌ لكلِّ زمان ومكان، وهو شاملٌ لمصالح العباد كُلِّهم إلى يوم القيامة؛ فلا حاجةَ للزيادةِ فيه؛ فإنّ هذا استدراكٌ على الله سبحانه وتعالى، قالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَقَد تركتم على مثلِ البيضاء ليلُها ونهارُها سواء)، قالَ أبو الدرداء رضي الله عنه: (صَدَقَ والله رسول الله صلى الله عليه وسلم، تركنا واللهِ على مثل البيضاء ليلُها ونهارها سواء) .

أمّا الآيةُ التي استدَّل بها الشيخ -رحمه الله- على إكمال الله لنا الدين فهي قول الله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيْنًا} نزلت هذه الآية والنبيُّ صلى

الله عليه وسلم واقفٌ بعرفة في حجة الوداع، في يوم الجُمُعة، قبلَ موتِ النبي صلى الله عليه وسلم بأشهرٍ قليلة.

ثم قال - رحمه الله -:

[والدليلِ على موته صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ}]

لمَّا أكملَ اللهُ الدِّين، وأَتَّم النعمة بالنبي صلى الله عليه وسلم توفاهُ الله إليه بعدما خَيَّره ملك الموت بين الحياة والموت، فكان آخرَ ما قال صلى الله عليه وسلم: (اللّهُمَّ الرفيقُ الأُعلى).

قال الله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ أَفَإِنْ مِتُّ فَهِمُ الْخَالِدُونَ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}، وَهو صلى الله عليه وسلم داخلٌ في هذا العموم، وقالَ تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسِلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ}، وقالَ تعالى: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ}، فالنبيُّ صلى الله عليه وسلم ومن أُرْسِلَ إليهم مَّيِّتون، وإنَّهم سيختصمونَ يومَ القيامةِ فيحكمُ بينهم بالحق، ولن يجعل الله للكافرينَ على المؤمنينَ سبيلا.

فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من أتباعه صِدقًا وحقاً؛ ويُدخلنا معه جَنَّة الفردوس برحمتهِ وفضله.

إلى هُنا انتهى الشيخ - رحمه الله - من بيان الأصل الثالث المُتعَلق بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

بَقِيَ آخر درس سيكون في الخاتمة التي ختمَ بها الشيخ - رحمهُ الله - هذه الرِّسالةَ المُباركة التي نفعَ اللهُ بِها خلقًا كثيرًا.

وسبحانكَ اللَّهم وبحمدك أشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا أنتَ أستغفركَ وأتوبُ إليك.